المحاضرة الثالثة :

ابن بُرد الأصغر :

قال ابن برد الأصغر في مناظرته بين السيف والقلم :

" إنَّ السيف والقلم لما كانا مصباحين يهديان إلى القصد،مَنْ بات يَسري إلى المجد، و سُلّمين يلحقان بالكواكب ،مَنْ ارتقى لساملياتِ المراتب، وطريقين يَشرعان نهج الشَّرفِ لمن تَقَرَّى إليه، ويجمعان شمل الفخر لمن تأشّب عليه، ووسيلتين يُرشفان العُلا فم عاشقها،ويبسطان في وصال المنى يد وامقها .....

- قال القلم : خيرُ الأقوال الحقّ، وأحمدُ السجايا الصدق، والأفضلُ مَنْ فَضَّله اللهُ عزَّ و جلَّ في تنزيله، مُقسماً به لرسوله،فقال :"ن * والقلم وما يَسْطُرُون" ، وقال:"اقرأ وربك الأكرم*الذي علّم بالقلم" ، فجلَّ من مُقْسِم، وعَزَّ مَنْ قَسم .
- فقال السيف: عدنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة،ومن وصف الخصلة إلى وصف الملّة، لا أُسرّ ولكن أُعلن ،قيمةُ كل امرئ ما يحسن،إنّ عاتقاً حمل نجادي لسعيد، وإنّ عضداً بات وسادي لسديد،وإنّ فتىً اتخذني دليلَه لَمَهديّ، وإنّ امرأً صيّرني رسيلَه لَمَفديّ.
- قال القلم: الحقّ أبلجُ ،والباطل لجلج،....أحكم فأعدل وأشهدُ فأُقبل، أَعِدُ فأفي، وأُسْتَكْفى فأكفي.
- فقال السيف: أمستعربٌ والفلس ثمنك، ومستجلَبٌ وكلّ بقعةٍ وطنك،إنّ الملوك لتبادر إلى دَرُكي،ولتتحاسد في مِلكي،ولتتوارثني على النسب، ولتُغالي فيَّ على الحسب.

- فقال القلم: مَنْ ساء سمعاً ساء إجابة، أستعيذ بالله من خَطَلٍ أرعيتَ فيه سوامك، وزللٍ افتتحت به كلامك ،وقلّما تُلْفَى الأعلاق النفيسة، إلا في الأمكنة الخسيسة،... ولولا جلاءُ الصُّياقل صدأك لأسرعت ذهاباً ،وعدت مع التراب تراباً.
- فقال السيف: جعجعة رحىً لا يتبعها طِحن، وجلجلة رعدٍ لايليها مُزْن، وجه لئيم وجسم سقيم،ورأس لم يتقلقل فيه لبٌّ،وجوف لم يتخضخض فيه قلب،أَوْحشُ من جوف العَير، فهُبَّ من نومك، وأفطر من صومك.
- فقال القلم : إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً، ما كلّ بيضاء شحمة، ولا كلّ سوداء تمرة، إنَّ ماءك السائل لجامد، وإنّ جرمَك الملتهب لبارد.

تعريف بالكاتب:

أبو حفص ابن برد الأصغر . جدّه أبو حفص ابن بُرد الأكبر ، وهو أول من سبق لكتابة مثل هذه الرسائل. وقد وردت هذه الرسالة في الذخيرة لابن بسام وهي موجّهة إلى أبي الجيش مجاهد العامري وهو من أمراء ملوك الطوائف.

تحليل النص:

يندرج النص تحت مسمّى فنّ الرسالة، لكنّه اتّخذ شكل المناظرة ،وهي من الفنون النثرية التي برع فيها الكتّاب العرب منذ العصر الأموي ،وهو فنّ يسعى الكاتب من خلاله إلى إثبات رؤية فكرية خاصّة به، إلى جانب إثبات مقدرته البيانية،وبراعته الأسلوبية بطريقة خيالية أو غير خيالية،تقوم على حقائق ودلائل وبراهين.وقد ظلَّ هذا الفنّ الأدبي محتفظاً بمكانته في

الأدب العباسي،وانتقلت العناية به إلى الأندلس،نتيجة تأثر كتّاب هذا الأدب بكلّ ما هو مشرقيّ.

قسّم الكاتب الرسالة إلى مقدّمة وعرض وخاتمة ضمن سياق يبدأ بفخر كل من الطرفين (السيف والقلم)بخصالهما، ثم يبدأ الجدل الذي يشتدّ نتيجة اعتماد الكاتب على السخرية، لينتهي هذا الجدل في النهاية إلى الاتفاق بين الطرفين بعد أن تناوب الخصمان على الكلام، وأورد كل منهما صفاته الفاضلة.

في الرسالة مناقشات مطوّلة تعرض صفات كل من القلم والسيف، ويحرص الكاتب على إيراد الصفات المادية الملموسة المجسّدة للسيف كقدرته على نُصرة حامله، وأنه أداة الملوك وحُليتها، أما القلم فيذكر له كل الصفات المعنوية معتمداً على دعم رأيه بآيات من القرآن الكريم ، وفي ذلك ميلٌ خفيٌّ للقلم.

لجأ الكاتب إلى التشخيص، فعرض كل أنماط السلوك الإنساني والمشاعر البشرية ، فهما يتحاوران ويتبادلان الشتائم ويعقدان الاتفاق، ويكون هذا الوفاق شعراً يختم به الكاتب مناظرته ،وتضمّنه مدحاً لمجاهد العامري.

الغاية من تأليف الرسالة:

يتّضح من النص أنَّ الغاية من الرسالة هي مدح مجاهد العامري وهو أحد أمراء الطوائف، وقد عبّر الكاتب عن ذلك بصورة رمزية أو إشارات أوضحت الصراع الواقع في الأندلس زمن الكاتب بين طبقة الكتّاب ورجال الجيش، فرجال القلم هم الطبقة الطامعة في القرب من السلطة، بينما رجال السيف يعتقدون أنهم الأجدر بها ، لأنهم القادرون على الدفاع عن الدولة الأندلسية في هذه المرحلة، لذلك عبّر الكاتب عن الأحوال السياسية في

بلاط العامري مقترحاً التوافق بين السيف والقلم، فلا تقوم الدول إلا بهما معاً مع ميل خفيّ إلى طبقة الكتّاب.

ويبيّن الكاتب من خاتمة الرسالة الغرض البياني الذي يُضاف إلى الغرض المدحي من خلال القصيدة التي يُنهي بها الرسالة .

١_ **التضمين :** استشهد الكاتب بآيات من القرآن الكريم في حوار القلم، ودعم آرائه من سورة العلق .... ومن سورة القلم .

كما ضمّن من أشعار العرب يقول: (أوحش من جوف العير)....

٢_ **اعتمد النص على مزج الحكمة والأقوال المأثورة في تراكيبه** دون إقحام لدعم المعنى الذي يريده ، كقوله: (من ساء سمعاً أساء إجابة، خير الأقوال الحقّ....).

٣_ **اعتمد النص على السجع الموافق للطبع** ، فجاءت عباراته مسجوعة دون تكلّف،وهذا يعني أنَّ السجع أدَّى دوره في تقسيم الجمل والفواصل تقسيماً خدم الشكل ،ولم يُؤثّر في جمالية المضمون.

٤_ **اعتمد الوصف الحسي** المترف للسيف، فوصفه بأوصاف مادية ،فهو مرصّع بالجواهر، وتقتنيه الملوك، أما القلم فقد وصفه وصفاً معنوياً رفيعاً مستشهداً على قيمته ومكانته بآيات من القرآن الكريم، وفي ذلك تفضيل خفيّ للقلم في دولة يحكمها الجند.

٥_ **اعتمد الكاتب على السخرية في الحوار والجدل** ، لينهي نار الخصومة بين الطرفين، ومن ذلك قوله: (جعجعة ....، لايتبعه طحن....، جسم سقيم...).

٦_ **يعتمد النص على حسن التقسيم الملازم مع الجناس** ، كقوله: (إن عاتقاً حمل نجادي ....لسعيد، وإنّ عضداً بات وسادي لسديد).

٧_ **المطابقة والمقابلة والتضاد**،وأمثلة ذلك كثيرة في معظم أجزاء الرسالة،كقوله:(بيضاء،سوداء)(سائل،جامد)(ريح، إعصار)(جعجعة،جلجلة).

٨_ **التشخيص:** قامت المناظرة على تشخيص طرفيّ الحوار، وأسقط الصفات الإنسانية على كل من السيف والقلم، فهما يتحاوران، يتجادلان، يتبادلان الشتائم،يعقدان الاتفاق. وهذا التشخيص ساعده في تطوير الحوار، والتركيز على صفات كل من الطرفين.